أبو حيان التوحيدي

وكتابة «الإمتاع والمؤانسة»

د. حمدان عبد الرحمن

كان أبو حيان التوحيدي فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة في عصره، واسمه علي بن محمد بن العباس التوحيدي. ذكر ذلك ياقوت في معجم الأدباء والسبكي في طبقات الشافعية، ومرجليوث في دائرة المعارف الإسلامية غير أن أحد علماء القرن السابع الهجري وهو معين الدين أبو القاسم الجنيد ذكر في كتابه «شد الإزار عن حط الأوزار»(١) أن اسمه «أبو حيان أحمد ابن العباس الصوفي».

ولاشك أن الذي أوقع الباحثين في هذا الخلط هو أن الرجل - على علمه وفضله - كان مجهول السيرة لدى كثير من الباحثين حتى إن الثعالبي المزامن له قد تجاهله تماما في يتيمته فلم يكتب عنه شيئا مع أنه كتب الكثير عمن هم أقل منه علما وأدبا وفضلا ولعل ذلك راجع إلى أسباب شخصية جعلت المؤلفين يعزفون عن ذكره لأنه كان هجاء سليط اللسان أو لأسباب سياسية خوفا من الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد. لأن أبا حيان قد هجاهما أقذع هجاء في كتابه «مثالب الوزيرين» مما جعل المؤرخين في عصره يتجاهلونه طمعا في جاه هذين الوزيرين وخوفا من بطشهما وانتقامهما ... وهذا ماجعل ياقوت. وهو المعروف بسعة الاطلاع والتنقيب يعجب من أن أحداً لم يذكر أبا حيان في كتاب ولا دبجه ضمن خطاب(٢).

---

(١) يتضمن هذا الكتاب أخبار الأعلام الذين دفنوا في مدينة شيراز وقد طبع قسم منه في لندن سنة ١٩١٩ م

(٢) معجم الأدباء ١٥ : ٥

وكما تضاربت الأقوال فى اسمه ولقبه تضاربت كذلك فى تاريخ مولده فذكر بعضهم أنه ولد سنة ٣١٢ هـ وقال بعضهم إنه ولد بين عامى ٣١٠ ، ٣٢٠ هـ أما الدكتور زكى مبارك فيقول : لا تسأل متى ولد ولا أين ولد ، فذلك رجل نشأ فى بيئة خاملة لم تكن تطمع فى مجد حتى تقيد تاريخ ميلاد ويكفى أن تعرف أنه فارسى الأصل وأنهم ترددوا بين نسبته إلى واسط أو نيسابور أو شيراز وأله وأنه عاش فى القرن الرابع وصدر القرن الخامس(١) .

ويؤكد الدكتور إبراهيم الكيلانى أنه ولد سنة ٣١٠ هـ ويقول : إنه استنتج ذلك من مصدرين . أولها : كتاب أرسله التوحيدى نفسه إلى القاضى أبى سهل بن محمد سنة ٤٠٠ هـ يقول فيه إنه بلغ عشر التسعين وثانيها : كتاب المقابسات الذى ألفه التوحيدى سنة ٣٦٠ هـ وكان عمره يومذاك خمسين عاما بدليل قوله « وما يرجو المرء بعد الإلتفات إلى خمسين حجه وقد أضاع أكثرها وقصر فى باقيها »(٢) .

ومن هذا نستطيع أن نطمئن إلى أن اسمه « أبو حيان على بن محمد ابن العباس التوحيدى » وأنه ولد سنة ٣١٠ هـ على أرجح الآراء ...

والتوحيدى نسبة إلى نوع من التمر يقال له التوحيد ، وكان أبوه يبيعه فى بغداد فنسب إليه ، وعليه حمل الشراح قول المتنبى :

يترشفن من فمى قبلات هن عندى أحلى من التوحيد

ويذكر ابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان أن التوحيد هو عين الدين ويقول : يحتمل أن يكون نسبته إلى التوحيد الذى هو عين الدين فإن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل التوحيد ...

---

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع ٢ : ١٣٣

(٢) أبو حيان ص ١٣

أما موطنه فلم يجزم أحد من المؤرخين بتحديده فمن قائل إنه بغدادى ومن قائل إنه شيرازى أو نيسابورى أو واسطى (١) ويقول الذهبى إنه « نزيل نواحى فارسى »(٢).

وأغلب الظن أنه كان بغدادى الموطن والنشأة عربى الأصل واللسان ذلك أن اسمه ولقبه وكنيته وعدم معرفته الفارسية على طول إقامته فى فارس وتردده عليها ليؤكد أنه كان عربى الأصل ولم يكن فارسيا ...

كان حبه الشديد لبغداد وعلاقته بأهلها وشعوره بالغربة فى أى مدينة سواها وعدم مبارحته إياها إلا للضرورة ليؤكد أنها كانت موطنه الأصلى ومسقط رأسه المحبب إليه وقد سبق أن ذكرنا أن أباه كان يبيع نوعا من التمر يقال له التوجيد فى بغداد .

٢ — أساتذته وشيوخه :

يقول ، مرجليوث ... فى دائرة المعارف الإسلامية : إن التوحيدى صرف القسم الأكبر من حياته فى بغداد حيث درس النحو على أبى سعيد السيرافى ... وقد كان أبو سعيد هذا عالما فذا من علماء عصره قد شارك مشاركة فعالة فى الحياة الفكرية بمختلف فروعها واتجاهاتها فقد أفتى فى جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبى حنيفة فما وجد له خطأ ولا عثر له على زلة(٣) .

وكان يدرس القراءات وعلوم القرآن والنحو والفرائض والحساب والكلام والبلاغة والشعر والعروض والقوافى وكان أعلم الناس بنحو البصريين ...

---

(١) معجم الأدباء ، ١٥ : ٥

(٢) ميزان الاعتدال ٣ : ٣٥٥

(٣) معجم الأدباء ٨ : ١٥

وهو الذى تصدى لشرح كتاب سيبويه وبسط علم النحو للناس حتى قال ابنه يوسف « وضع ابى النحو فى المزابل فى الاقناع(١) يريد أنه سهل النحو للناس حتى لا يحتاج إلى مفسر وقد وصفه تلميذه أبو حيان فقال : كان عابداً خاشعاً له دأب بالنهار من القراءة والخشوع وورد بالليل من القيام والخضوع صام أربعين سنة الدهر كله(٢) .

ويقول أبو سعيد المدائنى : ماقرىء على أبى سعيد ذكر الموت والقبر والبعث والنشور ، والحساب والجنة والنار والوعد والوعيد والعقاب والمجازاة والثواب والإنذار والإعذار وذم الدنيا بأهلها وتغيرها على أبنائها إلا وبكى منها وجزع عندها وربما نغص عليه يومه وليلته وامتنع من عاداته فى الأكل والشرب(٣).

ويبدو أن أثر أبى سعيد فى تلميذه التوحيدى قد تعدى النحو إلى غيره من العلوم والمعارف والأفكار والآراء والأخلاق والسلوك ذلك أن من يتدبر نفسية التوحيدى ويطلع على آرائه الأدبية وأفكاره الفلسفية يظهر له إنعكاس آراء السيرافى وأفكاره فى عقلية تلميذه ويندر أن نجد أستاذا ومريدا تشابها فى الفكر والعاطفة كما نجد ذلك عند السيرافى التوحيدى فأبو سعيد فى نظر تلميذه عالم العالم وشيخ الدنيا ومقنع أهل الأرض وإن من يتتبع دراسة عناصر هذا التأثير وبواعثه يجد أن التوحيدى مدين للسيرافى فى نشأته العلمية وتهذيبه الروحى ونجد هذا التأثير أبين ما يكون فى نزعتى التقشف والتوكل اللتين تعدان من أسس المثل الصوفية حتى صار التوحيدى كما يقول ياقوت شيخا من شيوخ الصوفية...

وهناك أستاذ آخر كان له أثر فى تكييف شخصية التوحيدى الفكرية

---

(١) المصدر السابق : ٨ : ١٤٩

(٢) المصدر السابق : ٨ : ١٧٢ (٣) المصدر السابق : ٨ : ١٧٢

وهو علي بن عيسى الرماني المتوفى سنة ٣٨٤ هـ الذي كان إماما في اللغة والأدب وشيخا من شيوخ النحو والمنطق حتى قال عنه ابن خلكان : لم ير قط مثله علما بالنحو وغزارة في الكلام وبعدا بالمقالات وإيضاحاً للمشكل مع تأله وتنزه ودين ويقين وفصاحة وفقاهة وعفافة ونظافة(١) .

وتلمذ أبو حيان الفقه على القاضي أبي حامد المروروزي المتوفى سنة ٣٦٢ هـ وبعده ابن خلكان من أئمة الفقه الذين لا يشق لهم غبار .

وكان التوحيدي ملازما لمجالس شيخه ، أبي حامد هذا ، كما كان كثير النقل عنه ، والرواية لأخباره كما يدل على ذلك كتاب « البصائر والذخائر »

وقد علل التوحيدي تعلقه بأستاذه هذا بقوله « وإنما أولع بذكر ما يقوله هذا الرجل لأنه أنبل من شاهدته في عمري وكان بحراً يتدفق حفظاً للسير ، وقياماً بالأخبار ، واستنباطا للمعاني وثباتاً مع الجدل ، وصبراً مع الخصام(٢).

ودرس أبو حيان الفلسفة والمنطق على عالمين عظيمين انتهت إليهما رئاسة أصحاب هذين العلمين وهما أبو زكريا يحي بن عـــدي المتوفى سنة ٣٦٤ هـ وأبو سليمان المنطقي السجستاني المتوفى سنة ٣٩١ هـ

وهناك شيوخ آخرون قرأ عليهم التوحيدي ولكن أثرهم فيه كان أقل وضوحاً ممن تقدم ذكرهم ومنهم أبو محمد جعفر الخلدي وكان رئيساً من رؤساء المتصوفة وأبو الحسين بن أحمد بن سمعون وكان وحيد عصره في الكلام ، وحسن الوعظ ، وحلاوة الإشارة ، ولطف العبارة . .

وهكذا أتيح لأبي حيان أن يتصل بأعلام عصره وجهابذته في العلم واللغة والأدب والمنطق فأخـــذ عنهم الكثير حتى صار فيلسوف الأدباء وأديب

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ١٨

(٢) البصائر والذخائر « مخطوط »

الفلاسفة وحتى صار موسوعة ثقافية هائلة نرى أثرها بوضوح فيما وصل إلينا من آثاره ومؤلفاته ..

٣ — ملامح شخصيته :

كان أبو حيان من الأفراد الذين حكمت عليهم المقادير بالتعاسة والشقاء ولعل من عوامل شقائه ، وبواعث تعاسته ـ أنه كان ميالا بطبعه إلى حب العيش الناعم اللذيذ ، وكان يتمنى أن ينغمس فى متاع الحياة الدنيا وشهواتها، ويستمتع بحياة لذيذة عذبة ...

وكان على الرغم من فقره وقبح هيئته وتظاهره بالزهد والتصوف نزاعا إلى الثروة والغنى ، ميالا إلى الجاه والسلطان ، لأن هذه الدنيا كما يقول : محبوبة ، والرفاهية مطلوبة ، والمكانة عند الوزراء مخطوبة والدنيا خضرة ، وعذبة نضرة(١) .

ولكن الأقدار أبت إلا أن تجرى على خلاف أمانى النفس فعاش التوحيدى فقيراً بائسا ، مضيقا عليه فى الرزق حتى غدا كما يقول :

تتشكى صرف زمانه ، ويبكى فى تصانيفه على حرمانه(٢) .

وكيف لا يشكو الحرمان وهو يعتقد أنه رجل موهوب ذو ذكاء ممتاز ، وملكات متفوقة فهو إذاً جدير بالسعادة قمين بنعيم الحياة .

ولما عدل التوحيدى إلى الزمان يطلب إليه مكانه فيه ، وموضعه منه رأى طرفه نابيا ، وعنانه فى رضاه منتفيا ، وجانبه فى مراده خشنا وارتقاءه فى أسبابه نائيا(٣) .

---

(١) الامتاع والمؤانسه ١ : ٥

(٢) معجم الأدباء ١٥ : ٥

(٣) معجم الأدباء ١٥ : ٥

وهكذا قدر عليه أن يعيش شقيا محروما ، يطوى منشور أمله متنزها ، ويجمع شتيت رجائه ساليا ، ويدعى الصبر مستمراً(١) « هذا وإن أكثر ما كان يؤلم التوحيدى وينغص عليه عيشه هو الفقر ، والفقر فى نظر رجل كالتوحيدى مرهف الحس ، ضعيف الأعصاب ، سريع التأثر والانفعال ليس كالفقر فى نظر عامة الناس بل الفقر عنده فكرة رهيبة يضخمها خياله التحليلى فيزيدها رهبة وهولا فهى تنطوى على معانى الحرمان والجهد الأليم الذى يتطلبه الحصول على العيش الهنىء المرموق(٢) » .

والتوحيدى رجل يخشى الفقر ، ويفزع منه دائما حتى شغل الفقر جانبا كبيراً من نفسيته وتفكيره وهو القائل « غدا شبابى هرما من الفقر والقبر عندى خير من الفقر »(٣)

وقد ساءت أحواله المالية حتى إنه كان لايظفر بقوته الضرورى وأنه عجز عن الحصول على طمرين للتستر لا للزينة والاختيال(٤) وأنه كان يأكل الكسيرة اليابسة والبقيلة الذاوية ، ويلبس القميص المرقع ، ويتأدم بالخبز والزيتون وينفق أربعين درهما فى الشهر(٥) وأنه كان لايفوز بالبلغة من العيش إلا ببيع الدين وأخلاق المروءة وإراقة ماء الوجه ، وكد البدن ، وتجرع الأسى ومقاساة الحرقة ، ومض الحرمان ، والصبر على ألوان وألوان(٦)

---

(١) المصدر السابق : ١٥ : ٥ : ٥٢

(٢) أبو حيان التوحيدى ص ٣٠

(٣) معجم الأدباء ١٥ : ٢٣

(٤) الصداقة والصديق ص ٥

(٥) الامتاع والمؤانسه ٣ : ٢٢٧

(٦) المصدر السابق ٣ : ١٤

وكان من نتائج هذا الصراع النفسى المرير عند التوحيدى أن أصيب « بمركب نقص » خطير كان يدفعه إلى التعاظم على الناس تارة وإلى التواضع والتصاغر تارة أخرى ...

وقد يزداد تبرمه بالبشر وشعوره بالنقص والحقارة فى بعض الأوقات فيقول : والله لربما صليت فى الجامع فلا أرى إلى جانبى من يصلى معى ، فإن انفق فبقال أو عصار أو نداف أو قصاب ومن إذا وقف إلى جانبى أسدرنى بصنانه ، وأسكرنى بنتنه ، فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخلق مستأنسا بالوحشة ، قانعا بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازما للحيرة ، محتملا للأذى ، يائسا من جميع من أرى (١)

وقد كان من نتيجة ذلك كله أن أصبح التوحيدى فريسة للغيظ والحسرة لعدم تمكنه من التمتع بالحياة قبل فوات الأوان ... ألم يقل إن العمر قصير ، والساعات طائرة ، والحركات دائمة ، والفرص بروق تأنلق ، والأوطار فى غرضها تجتمع وتفترق ، والنفوس على فواتها تذوب وتحترق (٢) .

ولهذا اشتد حسده لذوى اليسار والنعم ، وقويت كراهيته للناس ورغبته فى النيل منهم والتشنيع عليهم وإلصاق التهم والخازى بهم لأنهم فى نظره سباع ضارية ، وكلاب عاوية ، وعقارب لساعه وأفاع نهاشة (٣) .

ومع أن الحياة لم تهب التوحيدى شيئا من مباهجها ومسراتها ، فقد ظل طوال عمره شديد اللهفة والحنين إليها والتعلق بمتاعها وملذاتها . . وظلت هذه الآمال تداعب خياله حتى وهو فى أشد أطوار حياته ضعفا وعجزاً

---

(١) الصداقة والصديق : ص ٦

(٢) الامتاع والمؤانسه ١٠ : ٣٥

(٣) الصداقة والصديق ص ٦

وشيخوخة ويتجلى ذلك فى قوله .. وهل بعد الكبرة والعجز أمل فى حياة لذيذة أو رجاء لحال جديد(١) .

وهو بهذه العبارة يفصح تمام الافصاح عن رغبته التى سعى طوال حياته وراءها فلم يتم له ما أراد وبقيت حسرة فى نفسه حملها معه إلى القبر .

إن التوحيدى الذى قضى عمره فى الأسى والتحسر على فوت المأمول بعد المأمول يعض أصبعه أسفا ويزدرد ريقه لهفا ، والذى كان عرضة للقنوط والتهيج والمضايقة مزق فى ثورة غضبه كتبه التى أفنى عمره فى تسويدها وأحرقها لعلة جدواها وضنا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته ... (٢)

٤ — صلته برجال الدولة :

(أ) اتصاله بالوزير المهلبى :

اتصل أبو حيان التوحيدى بالوزير أبى محمد الحسن بن محمد المهلبى . الذى تولى الوزارة لمعز الدولة البويهى سنة ٣٣٩ هـ وكان الوزير المهلبى شخصية قوية ساهم مساهمة فعالة فى الحياة الأدبية فى عصره وكان كما وصفه ياقوت . طيب الحديث واكثره مذاكرة بالأدب وضروب الحديث لكثرة من يجمعهم من العلماء والفضلاء والكتاب(٣)

وكان الصابى يقول . كان أبو محمد يخاطب بالأستاذية

وفى الجملة كان الوزير المهلبى براً عطوفا على الادباء يقربهم إليه ويجزل لهم العطاء حتى قيل ، مات بموته الكرم والفضل(٤) .

---

(١) معجم الأدباء ١٥ : ١٦

(٢) معجم الأدباء ٩ : ١٣٣

(٣) معجم الأدباء ٩ : ١٤٦

(٤) تجارب الأمم ٢ : ١٩٨

وعلى الرغم من شهرة المهلبي بحدبه على العلماء وتكريم الأدباء فقد كانت صلته بالتوحيدى قصيرة الأمد فلم يلبث أن غضب عليه ونفاه من بغداد كما يقول الذهبي فى ميزان الاعتدال .

ولعل السر فى سخطه على التوحيدى أنه كان بطبعه يكره أصحاب العقائد والجدل وأخباره فى هذا معروفة ومشهورة وهذا مايعلل إقدامه على نفى التوحيدى لأنه كان فيلسوفا لا يحب الشيعة ولا الرافضة وكان المهلبي علويا شيعيا ...

(ب) رحيله إلى ابن العميد .

بعد أن فر التوحيدى من الوزير المهلبي الذى غضب عليه ونفاه عاش فى عزلة تامة بعيدا عن الأضواء وأخذ يحترف - على كره منه - مهنة الوراقة وهى مهنة شاقة تحتاج إلى كثير من الجهد والوقت والصبر . وكان لا يلجأ إليها إلا كل من ضاقت عليه موارد الرزق وقد احترفها عدد غير قليل من الأدباء والعلماء والفلاسفة والمفكرين أمثال ابن النديم وأبى سعيد السيرافى ويحيى ابن عدى وغيرهم .

ولم يلبث التوحيدى أن ضاق ذرعا بهذه المهنة القاسية ، فقد كتب أحد أصدقائه يشكو إليه همه وبثه شجونه وآلامه ويقول له « لقد استولى على سوء الحظ وتمكن منى تمكن الزمان إلى الحد الذى لا أسترزق من صحة نقل ، وتقييد خطى وتزويق نسخى وسلامته من التصحيف والتحريف بمثل مايسترزق البليد الذى ينسخ النسخ ويمسخ الأصل والفرع(١)

ولذا سخط التوحيدى على هذه المهنة التى فيها ذهاب العمر والبصر لضئولة موردها وقلة جدواها حتى غدت إحدى المنغصات التى أفسدت مزاجه وعكرت عليه صفو حياته ...

---

(١) معجم الأدباء ١٥ : ١٣

فى هذه الظروف القاسية التى أحاطت بأبى حيان لم يجد بدا من الاتصال بابن العميد الذى غدت داره محط آمال رواد الثروة والجاه من المشتغلين بالأدب والعلم ...

وكان ابن العميد كما وصفه مسكويه .. قد أوتى من الفضائل والمحاسن ما بهر به أهل زمانه حتى أذعن له العدو ، وسلم له الحسود ، ولم يزاحمه أحد فى المعانى التى اجتمعت له ...

فمن ذلك أنه كان أكتب أهل عصره ، كما كان شعره فى أعلى درجات الشعر ، فأما تأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه فكان منه فى أرفع درجة وأعلى رتبة ، ثم إذا ترك هذه العلوم وأخذ فى الهندسة فلم يكن يدانيه فيها أحد ، فأما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات خاصة فما جسر أحد فى زمانه أن يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعليم دون المذاكرة ، ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التى لا يدعيها أحد كعلوم الحيل التى تحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة ، والحركات الغريبة ، وجر الثقيل ومعرفة مراكز الأثقال وإخراج كثير مما امتنع على العلماء من القوة إلى الفعل وعمل آلات غريبة لفتح القلاق والحيل على الحصون ، واتخاذ أسلحة عجيبة وسهام تنفذ أمداً بعيداً ...

وإذا حضر المعارك وباشر الحروب فإنما هو أسد فى الشجاعة لا يصطلى بناره مع ثبات جأش وحضور رأى وعلم بمواضع الفرص وبصر بسياسة العساكر والجيوش ومعرفة بمكايد الحروب وكان يكفى ابن العميد أن يرفع الطرف إلى أحدهم عن طريق الإنكار فترتعد الفرائص ، وتضطرب الأعضاء ، وتسترخى المفاصل(١) .

---

(١) تجارب الأمم ٢ : ٢٧٥

هذا هو ابن العميد الذى رحل إليه أبو حيان طمعا فى جاهه وأمـــلا فى عطائه ورغبة فى أن يجد فى رحابه الأمن والأمان والحياة الوارفة الظلال.

ولكن مسعاه قد باء بالفشل الذريع ولم يلبث أن ضاق ذرعا بابن العميد وتحولت العلاقة بينهما إلى أسوأ حال ...

ولعل السبب فى ذلك أن ابن العميد لم يعجبه اعتداد التوحيدى بنفسه وغاظه أن يزى التوحيدى وهو رث الثياب زرى الهيئة يتطاول عليه — ابن العميد كان فيه من أبهة الفرس وعظمة السلطان — فاحتقره وازدراه فعزم التوحيدى على هجائه وثلبه وإلصاق التهم به ...

وراح يبحث عن عيوب ابن العميد ويفتش عن مثالبه فلم يجـــد فيه إلا البخل فوصفه به ، وبعد ذلك عمد إلى الحط من قدرته البيانية ، وإظهار ضعفه فى النحو واللغة وفى ذلك يقول : أول من أفسد الكلام أبو الفضل لأنه تخيل مذهب الجاحظ ، ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقى عند كل إنسان ولا تجتمع فى صدر كل أحد(١)

ولا شك أن هذا الكلام يدل على حقد التوحيدى وحسده لابن العميد لأنه لم يجد عنده ما كان ينشده من المال الوفير والعيش الهانى والحياة الهادئة المستقرة غير أن هذا الحقد لم يمنعه من الاقرار بفضل ابن العميد فى بعض الأحيان ...

وهكذا فشل أبو حيان فى أن يصادق أحد الوزراء ويعيش فى كنفه وينعم فى ظله بإقامة طيبة وحياة سعيدة .

---

(١) الإمتاع والمؤانسه ١ : ٦٦

(ج) إتصاله بالصاحب بن عباد

فى سنة ٣٦٣ هـ ترك أبو حيان مدينة بغداد وسار إلى مدينة الرى حيث يوجد الوزير الخطير ، والأديب الكبير الصاحب بن عباد علّه يظفر عنده بما لم يظفر به عند المهلبى وابن العميد ...

وقد كان الصاحب فى ذلك الوقت يتمتع بشهرة عمت أنحاء العالم الإسلامى فأمه الكتاب ، وتوافد إليه الشعراء والعلماء فرحب بهم وأغدق عليهم الأموال والصلات ...

وكان الصاحب فى بدء أمره من صغار الكتاب فترقت به الحال حتى تولى الوزارة لمؤيد الدولة البويهى وهو أول من تعب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصحب ابن العميد ...

سمع التوحيدى بكرم الصاحب فقصده بأمل فسيح ، وصدر رحيب فما فاز بطائل ، فعادعاتباعلى ابن عباد مغيظامنه مقروح الفؤاد لما نالهمن الحرمان المر ، والصد القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ، والقذع المؤلم ، والمعاملة السيئة ، والتغافل عن الثواب على الخدمة ، وحبس الأجرة على النسخ والوارقة والتهجم المواتى عند كل لفظة ولحظة(١)

فما أسباب إخفاق التوحيدى ، وما سبب تجهم الصاحب له عند كل لفظة ولحظة ؟ مع أنه كان يغدق على غيره من الكتاب والشعراء والعلماء بغير حساب ، ويحيطهم بعطفه ورعايته ..

لعل من أهم الأسباب فى ذلك اختلاف نفسيتى الرجلين فقد كان التوحيدى شديد الحسد والبغض لذوى الجاه والنعمة حتى عرف بهذه الخصلة واشتهر بها ، ولعله تجرأ على الصاحب واستطال عليه فاحتقره لذلك وازدراه جريا على عادته فى ذلك .

---

(١) الامتاع والمؤانسه ١ : ٣

ومن الأمثلة على ذلك ما رواه التوحيدى نفسه قال : قال لى الصاحب يوماً . وهو يتحدث عن رجل أعطاه شيئاً فتلكأ فى قبوله :

ولا بد من شيء يعين على الدهر . ثم قال سألت جماعة عن صدر هذا البيت فما كان عندهم ذلك فقلت : أنا أحفظ ذلك .. فنظر إلى بغضب وقال: ما هو ؟ قلت : نسيت ، فقال ما أسرع ذكرك من نسيانك ؟ فقلت : ذكرت والحال سليمة فلما استحالت عن السلامة نسيت قال : وما حيلولتها ؟ قلت : نظر الصاحب بغضب فمن حسن الأدب ألا يقال ما يثير الغضب قال : ومن تكون حتى نغضب عليك(١) ؟

ومن أسباب هذه العداوة كذلك اختلاف ثقافة الرجلين فقد كان التوحيدى يتفلسف على طريقة المعتزلة ميالا إلى الجدل ، بخلاف الصاحب الذى كان يحب العلوم الشرعية ويبغض الفلسفة وما شاكلها . ولا شك أن ذلك كان من أسباب العداوة بين الرجلين.

ومهما يكن من أمر هذه العداوة فقد كان من نتائجها رحيل التوحيدى عن بلاد الصاحب خالى الوفاض مما أحفظه على الصاحب فألف فيه وفى ابن العميد رسالته المشهورة « مثالب الوزيرين » والتى أفرغ فيها كل ما فى نفسه من حقد وضغينة .

(د) اتصاله بالوزير أبى عبد الله بن العارض المعروف بابن سعدان

عاد التوحيدى إلى بغداد بعد أن يئس من نوال الصاحب . وبعد أن استحالت العلاقة بينهما إلى عداوة شديدة وكاد أن يقع فى براثن الفقر والبؤس لولا أن قيض الله له رجلا من أهل الفضل هو أبو الوفاء المهندس الذى كان صديقاً له من قبل كما كان صديقا فى الوقت نفسه للوزير ابن سعدان .

---

(١) معجم الأدباء : ١٥ : ٧

وكان أبو الوفا هذا من كبار علماء زمانه فى الهندسة والرياضة والمنطق وقد أسدى إلى صديقه التوحيدى خدمة جليلة حيث أوصله إلى الوزير أبى عبد الله الحسن بن أحمد بن سعدان المتوفى سنة ٣٧٥ هـ وزير صمصام الدولة البويهى ...

وكان ابن سعدان هذا كما وصفه أبو حيان فى الإمتاع والمؤانسة يتحلى بالجود ، ويرتدى بالعفو ويتآزر بالحلم ويعطى بالجزاف ويفرح بالأضياف ويهب الدرهم والدينار كأنه غضبان عليهما ويطعم الصادر والوارد كأن الله قد استخلفه على رزقهما ثم يتجاوز الذهب والفضة إلى الثياب العزيزة والخلع النفيسة والخيل العتاق والمراكب الثقال ، والغلمان والجوارى حتى الكتب والدفاتر وما يضن به كل جواد(١) .

وما كان التوحيدى يصل إلى بلاط ابن سعدان حتى رحب به وضمه إلى مجلسه وقربه وحادثه ، وجرت بينهما أحاديث أدبية وفلسفية وعلمية ألف أبو حيان منها كتابه المشهور « الامتاع والمؤانسة »

آثاره ومؤلفاته

لقد خلف التوحيدى لنا تراثا ضخما فى مختلف المعارف والفنون ولكن الذى سلم منها ووصل إلينا قليل .

ولعل من أسباب ذلك أن التوحيدى قد أحرق جميع كتبه قبل موته ضنا بها على الناس لأنهم لم يقدروه فى حياته والذى وصل إلينا سالما كان قد خرج إلى الناس وذاع أمره قبل أن يحرق . وهذا ما أكده السيوطى حيث يقول « إن النسخ الموجودة الآن كتبت عنه فى حياته وخرجت من قبل حرقها » (٢)

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢٢٣/٣

(٢) بغية الوعاه للسيوطى ص ٣٤٨

وقد توفى التوحيدى سنة ٤١٤ هـ على أرجح الآراء بعد أن خلف لنا تراثا فكريا ضخما يشهد له بالتفوق والسبق فى جميع المجالات الفكرية وإليك طائفة من هذه المؤلفات :

١ — الإمتاع والمؤانسة طبع فى ثلاثة أجزاء بتحقيق الأستاذين : أحمد أمين وأحمد الزين .

٢ — الصداقة والصديق : طبعت هذه الرسالة بدمشق سنة ١٩٦٤

٣ — الهوامل والشوامل : ذكره التوحيدى فى المقابسات

٤ — بصائر القدماء وسرائر الحكماء

٥ — مثالب الوزيرين نشرها الدكتور : إبراهيم الكيلانى بدمشق سنة ١٩٦١

٦ — المقابسات : طبع هذا الكتاب فى الهند .

٧ — الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية مخطوط فى جزءين وغيرها كثير . عدها ياقوت فى معجمه فبلغت سبعة عشر كتابا بخلاف المفقود والمحروق .

« كتاب الإمتاع والمؤانسة »

(١) قصة تأليف الكتاب :

كان أبو الوفاء المهندس ـ كما سبق ـ صديقاً لأبى حيان كما كان صديقا فى الوقت نفسه للوزير ابن سعدان ... فاستطاع أن يقرب أبا حيان من الوزير وأن يصله به حتى جعل الوزير ابن سعدان أبا حيان من جلسائه وسماره فسامره سبعة وثلاثين ليلة كان يحادثه فيها ويطرح الوزير عليه أسئلة فى مسائل مختلفة فيجيب عنها أبو حيان ... ثم طلب أبو الوفاء من أبى حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث وذكره بنعمته عليه فى وصله بالوزير

مع أن أبا حيان لم يكن أهلا لمصاحبة الوزير لقبح هيئته وسوء عادته ، وقلة مروءته وحقارة لبسته . وهدده إن هو لم يفعل أن يغض عنه ويستوحش منه ويوقع به عقوبته وينزل الأذى به فأجاب أبو حيان طلب أبي الوفاء ونزل على حكمه وفضل أن يدون ذلك فى كتاب يشتمل على كل ما دار بينه وبين الوزير من دقيق وجليل وحلو ومر فوافق أبو الوفاء على ذلك ونصحه أن يتوخى الحق فى تضاعيفه وأثنائه والصدق فى إيراده وأن يطنب فيما يستوجب الإطناب ويصرح فى موضع التصريح فكان من ذلك كتاب « الإمتاع والمؤانسة »

(ب) وصف الكتاب وماديته ومنهجه

وصفه القفطى فى أخبار الحكماء فقال : وهو كتاب ممتع على الحقيقة . لمن له مشاركة فى فنون العلم فإنه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو : ابتدأ أبو حيان كتابه صوفيا وتوسطه محدثا وختمه سائلا ملحفا(١)

وقد قسم أبو حيان كتابه إلى ليال فكان يدون فى كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة قال له ، وسألنى ، وقلت له وأجبته، وكان الذى يقترح الموضوع دائماً هو الوزير ، وأبو حيان يجيب عما اقترح ... فاذا أجاب أبو حيان أثارت إجابته أفكار ومسائل عند الوزير فيستطرد إليها، ويسأله عنها فمثلا قد يسأله سؤالا يأتى فى أثناء الإجابة عنه ذكر ابن العميد أو الصاحب بن عباد أو أبى سليمان المنطقى فيسأله الوزير عنهم وعن رأيه فيهم.

وهكذا يستطرد من باب إلى باب ومن موضوع إلى آخر حتى ينتهى المجلس (٢). وفى النهاية يسأله الوزير أن يأتى بملحة الوداع وهذه الملحة

---

(١) أخبار الحكماء ص ٢٨٣

(٢) انظر تقديم الإمتاع والمؤانسة للأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين

تكون — عادة — نادرة لطيفه أو أبياتاً رقيقة أو شعراً بدوياً يشم منه رائحة الشيح والقيصوم . وموضوعات الكتاب متنوعة تنوعا ظريفا لاتخضع لترتيب ولا تبويب إنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث من كل علم وفن كالأدب والفلسفة والحيوان والبلاغة والتفسير والغناء والمجون والسياسة والتراجم ..

فهو كتاب ممتع مؤنس كاسمه يلقى أضواء على الحياة الاجتماعية فى العراق أيام دولة بنى بويه فقد تعرض لكثير من أحوال الحكام والوزراء كابن العميد وابن عباد وابن سعدان ووصف مجالسهم ومحاسنهم ومساويهم وما كان يدور فى مجالس العلماء من حديث وجدل وخصام .

كما أن فيه فوائد كثيرة عن الحياة السياسية للدولة فهو يصف حالة الشعب فى عصره وموقف الرعية من الحكام وتصوير اضطراباتهم وثوراتهم فى بعض الأحيان وأسباب ذلك . ثم إن أسلوبه فى تقسيمه إلى ليال وذكره ما دار فى كل ليلة على سبيل الحديث والحوار يجعله لذيذاً شيقا فهو أشبه شىء بألف ليلة وليلة ولكنها ليست ليالى اللهو والطرب وكيد النساء ولعب الغرام وإنما هى ليال للفلاسفة والمفكرين والعلماء والأدباء فإذا كان كتاب ألف ليلة يصور الحياة الشعبية فى ملاهيها وفتنتها وعشقها فكتاب الإمتاع والمؤانسة يصور حياة العلماء والأدباء وكيف يبحثون ؟ وفيم يفكرون وكلاهما فى شكل قصص مقسم إلى ليال وإن كان حظ الخيال فى الإمتاع والمؤانسة أقل من حظه فى ألف ليلة وليلة ... وأسلوب أبى حيان فى الكتاب أسلوب أدبى راق ، فهو يحب الازدواج والمجانسة ويكثر من الصور البيانية ويحذو حذو الجاحظ فى الإطناب والاستطراد ، والإطالة فى تصدير الفكرة وتوليد المعانى منها حتى لايدع لقائل بعده قولا ...

(ج) مثال لأسلوب الكاتب وطريقته فى الكتابة ـ الصاحب بن عباد:

فى الليله الرابعة من ليالى الإمتاع والمؤانسة طلب الوزير من ابن سعدان من أبى حيان أن يحدثه عن الصاحب ابن عباد وأن يذكر له رأيه فيه فقال بعد تردد « إن الرجل كان كثير المحفوظ ، حاضر الجواب فصيح اللسان ، فد نتف من كل أدب خفيف أشياء وأخذ من كل فن أطرافاً والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة وكتابته مهجنة بطرائقهم ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب وهو شديد التعصب على أهل الحكمة ، والناظرين فى اجزائها كالهندسة والطب ، والتنجيم ، والموسيقى ، والمنطق ، والعدد ...

وهو حسن القيام العروض والقوافى ويقول الشعر وليس بذاك وفى بديهته غزارة ، ويتشيع لمذهب أبى حنيفة ومقالة الزيدية ولا يرجع إلى الرأفة والرحمة ، والناس كلهم محجمون عنه لجرأته وسلاطته ، واقتداره وبسطته ، شديد العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بذىء اللسان ، مقلوب بحرارة الرأس ، حسود ، حقود ، حديد وحسده وقف على أهل الفضل ، وحقده سار إلى أهل الكفاية أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته ، وأما المنتجعون فيخافون جفوته ، وقد قتل خلقا ، وأهلك ناسا ، ونفى أمة نخوة وتعنتا وزهـــوا ...

وهو مع هذا يخدعه الصبى ، ويخلبه الغبى ، لأن المدخل عليه واسع والمأتى إليه سهل وذلك بأن يقال : مولانا يتقدم بأن أعار شيئا من كلامه . ورسائل منثوره ومنظومه ، فاجيبت الأرض إليه من فرغانة ومصر ، وتفليس إلا لاستفيد كلامه وأفصح به ، وأتعلم البلاغة منه لكأنها رسائل مولانا سور قرآن ، وفقره فيها آيات فرقان ، واحتجاجه من إبتدائها إلى إنتهائها برهان فوق برهان ، فسبحان من جمع العالم فى واحد وأبرز جميع قدرته فى شخص ، فيلين عند ذلك ويذوب ويلهى عن كل مهم له وينس كل فريضة عليه ويتقدم إلى الخازن

بأن يخرج إليه رسائله مع الورّاق والورِق ويسهل له الإذن عليه والتمكن من مجلسه .

ثم يعمل فى أوقات كالعيد والفصل شعرا ويدفعه إلى أبى عيسى بن منجم ويقول : قد نحلتك هذه القصيدة إمدحنى بها فى جملة الشعراء وكن الثالث من الصبح المنشدين ، فيفعل أبو عيسى — وهو بغدادى محكك — قد شاخ على الخدائع وتحنك وينشد فيقول له عند سماعه شعره فى نفسه ، ووضعه بلسانه ، ومدحه من تحبيره ، أعد يا أبا عيسى فإنك والله مجيد ، زه يا أباعيسى والله قد صفى ذهنك وزادت قريحتك وتنقحت قوافيك ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدتنا فى العيد الماضى ، مجالسنا تخرج الناس ، وتهب لهم الذكاء تزيد لهم الفطنة ، وتحول السكون عتيقا ، والمحمر جوادا ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنيه ، وعطية هنية ، يغيظ الجماعة من الشعراء وغيرهم ، لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مصراعا ، ولا يزن بيتا ، ولا يذوق عروضاً .

والذى غلطه فى نفسه ، وحمله على الإعجاب بفضله ، والاستبداد برأيه أنه لم يجبه قط بتخطئة ولا قوبل بتسوئة ، ولا قيل له أخطأت ، أو قصرت أو لحنت أو غلطت ، أو أخللت لأنه نشأ على أن يقال أصاب سيدنا ، وصدق مولانا ولله دره ولله بلاؤه ما رأينا مثله ولا سمعنا من يقاربه فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوى ريتبسم ويطير فرحاً ويتبسم ، وهو فى كل ذلك ينشاكى ويتحايل ويلوى شدقه ، ويبتلع ريقه ويأخذ كالممتنع ويغضب فى عرض الرضا ويرضى فى لبوس الغضب ويتمالك ويتقابل — ويتمايل ويحاكى ... ويخرج فى أصحاب السماحات ومع هذا كله يظن أن هذا خاف على نقاد الأخلاق ، وجهابذة الأحوال والذين قد فرغهم الله لتتبع الأمور ، واستخراج مافى الصدور وذلك أنه ليس بجيد العقل ولا خالص الحق ، وقد أفسده ثقة صاحبه ، وتعويله عليه ، وقلة سماعه من الناصح فيه فعذر

بازدهاء المال والعلم والاقتدار والأمر والكفاية ، وطاعة الرجال وتصديق الجلساء.(١)

ولا شك أن هذا الكلام يدل على حقد التوحيدى للصاحب وحنقه عليه لأنه عامله أسوأ معاملة ولم يظفر التوحيدى من مجلسه بطائل فكان من نتيجة ذلك هذا التحامل عليه من قبل التواحيدى ..

والذى نعرفه من سيرة الصاحب أنه لم يكن على هذه الدرجة من سوء الخلق وقلة العقل والغدر بالرجال ..

د / حمدان عبد الرحمن أحمد

---

(١) الإمتاع والمؤانسة جـ١ من ص٥٤ : ٦ بتصرف